المـاركســيـة

تفسيرها للدين والكون والحياة الاجتماعية

الماركسية فلسفة مادية وهي أكثر من عقيدة فلسفية لأنها حركة ثورية تعطي للإنسان مبدأ حضارة كاملة، ومنها إمكانية إقامة مذهب كامل للقيم السياسية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية وترتكز على الصراع بين الطبقات البرجوازية والطبقة العاملة، ولد كارل ماركس عام 1818 بمدينة تريف من أسرة يهودية لا تحفل بالدين.

ونزعته الأممية نابعة من الاضطهاد اليهودي في العالم. وأصبح هيجيلياً منذ عام 1838 ثم بدأ يتحرر من الدين والفلسفة ثم انتقل إلى الشيوعية بتأثير الحركة العمالية.

وبدأت صداقته مع إنجلز وبدأ بإصدار البيان الشيوعي ثم أصدر كتابه (رأس المال) وبدأ بالتكوين النهائي للمادية الديالكتيكية، والتصور الماركسي للتاريخ وأسس الأممية الأولى التي عرفت (الاتحاد العالمي للشغيلة).

في عام 1883 مات ماركس في لندن وكتب (نقد فلسفة الحق عند هيجل) وكتاب نقد الاقتصاد السياسي.

وفي بحوثه عن ضياع الذات متعارضاً مع هيجل يجد الضياع الديني، ففي الدين يخلع الإنسان إلى خارجه كيانه الجوهري، ويضع نفسه في وهم عالم متعال[1].

---

(1) نقد الدين والفلسفة، جان ايف كالفيز ص 58.

ويعتبر ماركس نقد الدين ولو نقداً عقلياً صرفاً شيئاً لابد منه للفت انتباه الإنسان إلى ظاهرة الانقسام والضياع، سبب شقاء الإنسان. فلنقد الدين عنده صفة تربوية تحضيرية[1].

الإلحاد مسألة موجودة في كل مؤلفاته والماركسية في نظره ليست حركة مناهضة للدين وإلحاداً نضالياً قبل كل شيء آخر، لأنها تتوقع زوال الدين من تلقاء نفسه متى زالت الظروف الاجتماعية اللانسانية (والواقع في الاتحاد السوفييتي لم يثبت ذلك فعندما سقطت الماركسية ظهر الفكر الديني المخبوء تحت قوة (KIB) الأمين ويقول ماركس (إن نقد الدين شرط لكل نقد)[2].

لأنه يعتبر الدين (أفيون الشعوب).

يهاجم الدولة الدينية كما يهاجم المسيحية وخاصة في (المسألة اليهودية) ويقول: إن تعرية الدين من امتيازاته السياسية العامة تؤدي إلى زلته. الدين يؤدي إلى الإذعان للخارج المطلق ويهاجم المسيحية ويقول: إن المبادئ الاجتماعية المسيحية مرائية والبرولتياريا ثورية.

(إن الدين هو الزفرة يصعدها المخلوق الذي هدّه الشقاء، هو الروح من عالم لا قلب له هو الفكر في عصر لا فكر له إنه للشعب أفيون) هكذا قال ماركس (الماركسية جلبت الهيجيلية لأن عالم الأفكار ليس إلا العالم المادي وقد انتقل إلى الفكر الإنساني وترجم فيه ومنهجي في التحليل ليس منهج هيجل لأنني مادي وهيجل مثالي) والدين عند ماركس هو نتاج المجتمع الإقطاعي الذي يريد أن يسخر العبيد والناس لمصالحهم وأبدعوا

---

(1) نقد الدين والفلسفة، جان ايف كالفيز ص 60.

(2) مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيجل (المؤلفات الكاملة المجلد 1) ص 83.

الدين ليستخدموا هؤلاء باسم المشيئة الإلهية وقالوا بسرمدية العالم ووحدته وأنه سرمدي.

والرد على ذلك جاء به الدكتور البوطي بدليل الشمس وكيف فقدت آلاف الأطنان من وزنها وهي ماضية في هذا الفقد والنقصان.

قال بليخانوف (الإنسان هو الذي صنع الأديان وأن الدين لم يصنع الإنسان).

قال (التفكير من خصائص الإنسان النابعة من نشوء الشكل الأعلى للمادة أي حسب نظرية الديالكتيك).

والحياة عند أنجلز (ما هي سوى أن تكون نتيجة بعض التفاعلات الكيميائية).

والوعي الإنساني عند الماركسية هو من ثمرات المادة ولكنها ثمرة لمادة خاصة عالية التنظيم هي الدماغ.

ويقول في كتاب المادية التاريخية (وفي عصر الإقطاع سادت النظرة إلى الدين ثم إلى التاريخ وتولدت من السعي إلى تبرير النظام الإقطاعي وإسهام الجماهير بأن مشيئة الإله هي التي فرضته لأن مشيئة الإقطاع والكنيسة تعتمد على مشيئة الله[1].

ورد بليخانوف على ماركس عندما قال: الدين إنما نشأ ليكون ترساً للإقطاعيين (وهو أفيون الشعوب) قال: إن دين القبائل البدائية لم يدرس بعد الدراسة الكافية. ويعتبرون الفن والدين والمشاعر الجمالية كلها لها عوامل اقتصادية.

---

(1) المادية التاريخية، ترجمة أحمد داود ص 29.

الأخلاق عندهم ما هي إلا ما أثمرته مقتضيات صراع الطبقات الدائر في زعمهم حول الاقتصاد. والقيم والأخلاق مرتبطة بالحياة الاقتصادية المتمثلة في قوى الإنتاج ووسائله.

ويقولون بالمادية التاريخية والحتمية وإن الحياة البدائية كانت مشاعاً ثم تشكلت الحياة البدائية ضمن ملكية جماعية للقبيلة ومن ثم صارت فردية ثم فردية وجماعية ثم تشكل الإقطاع ثم البرجوازية التي تستخدم العمال البروليتياريا) وستقوم الشيوعية كثورة في بلاد صناعية ويقوم بها العمال (ثورة البروليتياريا) وبعد ذلك تضمحل الدولة وتصير ملكية جماعية (كل يأخذ حسب حاجته وكل يعمل على حسب طاقته).

الديالكتيك (المادية الجدلية عند هيجل):

يرى هيجل أن وجود الشيء على الصعيد الخارجي إنما هو ثمرة الإبداع الفكري له، فالفكر يبدع الشيء صورة ومثالاً ثم يدفعه إلى الصعيد الخارجي حقيقة مطابقة لذلك المثال ـ لأن الوجود الأصلي للبناء كامن في خارطته. والوجود الأصلي للأنغام التي تنبعث من العزف على الآلات المشاهدة كامن في مدونة اللحن (النوته) والشجرة وجودها الأصل الخارجي الحاصل كامن في نواتها. الفكر الكلي هو مظهر تجلي الموجودات في مراحلها المثالية الأولى ثم تتجسد في وجودها الخارجي مطابقة للأصل في المرحلة الثانية.

وعالم المحسوسات الخارجية ← تتجسد ثم تبدأ التطويرات

المشروعات تتجسد ← ومن ثم يكون تحسين وتطوير

والوجود الخارجي هو نتيجة تجربة نافذة.

الديالكتيك = الجدلية ← التفاعل = الأخذ والرد والتطوير بين ما بين الفكر الداخلي والموجودات الخارجية.

والأطروحة عند هيجل هو المشروع طباقاً أو نفياً (الوجود في ساحة الوجود) ينعكس (الوجود) إلى الفكر ثانية حيث تستقر صورته في الذهن (مفهوماً) ثم يصل إلى التركيب أو (نفي النفي).

الأطروحة ← في ساحة الفكر.

الطباق ← يمثل في الصعيد الخارجي.

التركيب ← انعكاس صورة الجسد في الصعيد الخارجي إلى ساحة الفكر لتطويره ثم إعادته إلى الوجود الخارجي.

الديالكتيك (الجدلية) تعبير عن التفاعل بين الشيء وذاته على نحو يدفعه إلى التطوير والعودة إلى ذاته بشكل أرقى.

كل هذا يتشكل من المادة ذاتها بتفاعلها الذاتي بالجدلية الديالكتيكية ولذلك تم تأليه المادة وحدها. كما ترى أن الروح والفكر أثر من آثار التطور الجدلي للمادة.

1 – قانون الجدلية:

تحول الكم إلى كيف ← كم متصل أو منفصل

↓ ↓

في الحجم والقياس في العدد

فالكيف والسمات والخصائص الجوهرية كالليونة والصلابة والبرودة والحرارة كلها تغييرات طارئة على كمية الشيء تؤثر أخيراً في تغيير كيفيته.

2 ـ قانون وحدة الأضداد وصراعها:

التطور (لوجود أضداد متزاحمة ضمن الشيء الواحد بل ضمن الوحدة الصغيرة المجتزأة من الشيء الكامل، المباشر للتطور هو الصراع الذي يتم بين الأضداد.

3 ـ قانون نفي النفي (التركيب):

ويتصف بالاستمرار الذي لا توقف له فهو دستور التطور الدائم وليس النسخ للقديم والقضاء على عناصره بالكلية بل نسخ كل الخصائص السلبية والإبقاء على أفضل الخصائص وتجديدها، فنفي النفي الديالكتيكي يفترض نفي القديم والمحافظة على ماسواه، نفي النفي لا يسير بطريق مستقيم بل بشكل دائري ليعود إلى أطروحة جديدة أغنى وأفضل (التطور وانتخاب الأصلح) وهم ينظرون إلى المادة أنها:

1 ـ أساس الوجود وينبوع الحقائق.

2 ـ ملازمة المادة للحركة.

3 ـ سرمدية العالم ووحدته وهي أبدية.

الحتمية التاريخية:

يقول كارل ماركس (إن الحقائق الأبدية تعاني مأزقاً أشد حراجة من ذلك في المجموعة الثالثة من العلوم، وهي المجموعة التاريخية وهكذا فإن معرفتنا في مجال التاريخ الإنساني لأشد تخلفاً أيضاً منها في ميدان علم الحياة)[1].

بليخانوف كما مر سابقاً رد على ماركس (إن دين القبائل البدائية لم يدرس بعد الدراسة الكافية، ولكن ما نعرفه من قبل يؤكد تماماً صحة الأطروحة التي

(1) أنتي دوهرونج ص 106 (كتاب أنتي دوهرونج لأنجلز).

وصفها ماركس عن فيورباخ وهي أن الدين لم يصنع الإنسان بل الإنسان هو الذي صنع الدين).

وكان حسب توقعاته وفلسفته ظن ماركس أن الثورة ستقوم في سويسرا حيث التقدم الصناعي مع تخلف العلاقات الإنتاجية ولكنها قامت في الاتحاد السوفييتي الذي كان يهتم بالزراعة ومتخلفاً صناعياً.

نظرية فائض القيمة: كانت هي أسس نظرية الثورة البلشفية وهو الفرق الزائد الذي يجنيه صاحب المصنع على كلفة العمل الذي قام به العامل أو الصانع، أي قيمة السلعة ما أخذه العامل من أجر على صنعها أو إخراجها مضافة إليه كلفة تآكل الآلات وصيانتها (والفائض عليها تلك الزيادة التي أضافها (الرأسمالي) إلى هذه القيمة زاعماً أنها ربح له).

وإن الرد العلمي على هذه الفلسفة الماركسية يكمن فيما يلي:

قال يوسف كرم في كتابه تاريخ الفلسفة الحديثة (إن الإلحاد الذي يدعو له كارل ماركس ينتج عن الإلحاد من الهبوط بالإنسان إلى درك الهيمنة بل إلى أدنى، إذ أن الإنسان حينذاك يجري مع غرائزه مطلقاً من القيد الطبيعي الذي نشاهده في البهيمة والذي يوقفها عند حد الاعتدال فلا يعرف رادعاً سوى الخوف من بطش الأفراد والجماعات) ثم يقول إن الحاجة إلى الدين أصيلة في النفس لا يمكن اجتثاثها، (وليس يحيا الإنسان بالخبز وحده بل بكل كلمة تخرج من الله)[1].

والشيوعيون قدموا لنا دواء هو أشد من الداء ومذهبهم هو إخضاع الأفراد للدولة في جميع الشؤون وخنق كل حرية فكرية. ومهما كانت الدولة لا يمكن أن تعتني بكل الأفراد ولذلك سقطت الشيوعية وسقط الاتحاد السوفييتي وأثبت

(1) يوسف كرم (تاريخ الفلسفة الحديثة) دار المعارف ص 3.4.

فشله لأنه وزع الفقر بالتساوي ولم يعالج مشكلة العمال وتسلط الحزب بعدده التسع ملايين على رقاب الناس لمدة سبعين عاماً وستسقط كل النظريات والتنبؤات الماركسية وتعود الحياة إلى الوسطية والاعتدال.

وهيجل الذي اعتمد عليه ماركس في الديالكتيك كان مؤمناً بالدين ومؤمناً بالله تعالى وقال: (إن هذا النور وحده هو الذي يستطيع أن يوائم بين الروح وبين التاريخ الكلي والواقع معناه أن ما حدث ويحدث كل يوم، ليس قائماً بمعزل عن الله، بل هو جوهرياً من صنعه هو ذاته)[1].

وللمزيد من الاطلاع على سقوط الماركسية لابد من العودة إلى كتاب نقض الأوهام المادية الجدلية (الديالكتيكية) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وسقوط الشيوعية للأستاذ محمد وحيد الدين خان والشيوعية لعباس محمود العقاد.

(1) نقض أوهام المادية الجدلية (الديالكتيكية، د. محمد سعيد البوطي) ص 37.